المسيح يحتفل بعيد الميلاد

- دستويفسكس -

يخيل لي دائما، أن هذا قد جرى، في مكان ما من إحدى المدن الضخمة، ليلة عيد الميلاد تماماً. وكان الطقس جليدا رهيبا.

طفل. طفل في السادسة من عمره أو أقل أفاق ذات صباح وهو يرتجف من البرد في قبو ينز بالرطوبة. كان يرتدي شيئا صغيرة يشبه القميص، واللهاب المنبعث من فمه يشكل حلقات من البخار الأبيض. وهو قابع في زاوية، فوق صندوق خشبي، يتلهي بمشاهدة هذا البخار ليبدد عنه السأم.

إلا أنه جائع يحس برغبة ملحة أن يأكل شيئا. وكان قد اقترب مرات كثيرة في النهار من الحصير التي تضطجع عليها أمه، فوق شيء من القش يشبه شكل الفراش، وتحت رأسها كومة من الثياب العتيقة تستعيض بها عن الوسادة.

كيف صادف وجودها في هذا المكان؟

لابد أنها جاءت مع طفلها ن مدينة أخرى وأقعدها المرض فجأة وكان البوليس قد استدعى في المساء سيدة القبو. وتفرق بقية المستأجرين في هذه الساعة من الليل، أنه العيد... ولم يكن قد بقى غير

بائع الثياب العتيقة الذي راح يخمر ما التهم من شراب قبل أربع وعشرين ساعة دون أن ينتظر حلول العيد.

وكان في الشقة الشافية عجوز ضئيلة شلها الروماتيزم فراحت تئن وتتوجع. وقد كانت في زمن مضى وبلاد أخرى صغيرة مدللة. إلا أنها الآن وحيدة تتأوه وتشكو وتنتهر الصغير الذي بات يخشى الاقتراب من هذه الزاوية.

لقد استطاع أن يجد في الدهليز شيئا يشربه. ولكنه لم يجد لقمة واحدة من الخبز. وكان كقد اقترب، عش مرات على الأقل من أمه يحاول أيقاظها. ولكن الخوف من الظلمة تملك قلبه الصغير واستبد به الذعر، كان الليل قد أرخى سدوله منذ أمد طويل والنور لما يضيء المكان.

وكان قد جس وجه أمه فوجده باردا كالجدار. وعجب لها كيف ظلت بلا حراك... وهتف لنفسه: "ان البرد شديد هنا". وارتحات يده آليا على كتف أمه الميتة. وراح ينفخ في أصابعه الصغيرة ليبعث فيها الدفء. وبعد أن تحرى عن قبعتة فوق الحصير غادر القبو بلا ضجة وهو يتلمس طريقه بيديه، وكان بوده لو غادر المكان قبل هذا الوقت بكثير، لولا خوفه أن يصادف في أعلى السلم الكلب الكبير الذي كان ينبح طوال الليل أمام باب البيت المجاور. ولكن الكلب لم يكن هنا الآن. وها هو يجد نفسه في الشارع فجأة.

يا إلهي! ما أعظم هذه المدينة! انه لم ير شبيها لها قط. أما هناك حيث جاء مع أمه فقد كان الظلام يخيم على المدينة في الليل، فانوس

واحد كان ينير الشارع كله، ويأوي الناس إلى بيوتهم في المساء فلا نجد أحداً في الشوارع ولا تسمع سوى نباح الكلاب. ولكن الطقس بالمقابل كان دافئاً. وكانوا، هناك، يعطونه شيئا يأكله.

أما هنا! يا الله لو يستطيع أن يأكل شيئاً!

ثم، أي صخب تصم أذنيه، وأية أنوار وجماهير وخيول وعربات، وهذا الجليد الذي ينهمر، ينهمر بلا انقطاع، وخيول العربات الرائحة الغادية تنفت من مناخرها بخارا مجلدا ويرن حديد حوافرها على البلاط خلال الثلج المنثور. وهذه الجماهير تتصادم وتزدحم و... يا إلهي لشد ما تستبد به الرغبة أن يأكل شيئا، لقمة من أي شيء. ولشد ما يحوس بالألم كيدب في أصابعه الصغيرة.

ومر به أحد رجال البوليس فلوى عنه برأس كأنه لم يلحظه هاك شارعاً آخر. أوه! كم هو عريض! هنا ستسحقه احدى العربات حتما. لشد ما يضج كل هذا العالم ويسرع. ويتجاوز الناس سيرا على الأقدام وفي العربات. والنور! ما هذا النور؟

وهذا! ما هذا يا إلهي؟ ما أكبر هذه الواجهة! ورأى وراء الواجهة غرفة فيها شجرة كبيرة ترتفع حتى السقف، انها شجرة صنوبر تزينها لأنوار وباقات الزهر المهبة والتفاح.. وحولها دميات وخيول صغيرة وأطفال البستهم جديدة يضحكون ويلهون، يأكلون ويشربون.

وهاك فتاة صغيرة! لقد بدأت ترقص مع فتى صغير. لله ما ألطفها! حتى نغمات الموسيقى تسمع خلال البلور.

وطفلنا الجائع يفغر فاه دهشة، ثم ينفجر ضاحكاً، يشحكو على الرغم من ألم اصابعه المحمرة والتي لم تعد تنثني.

ويذكر الصغير فجأة أن اصابعه تؤلمه فيجهش بالبكاء ويركض مسرعاً.

وتوقف أماكم واجهة ثانية وغرفة فيها شجرة أيضاً، فرأى على المائدة كميات كبيرة من (الكاتو)، كل أنواع الكاتو، منها مصنوع باللوز ومنها لونه أحمر وأخضر، وأربع سيدات ثريات جالسات يوزعنها على الصغار. وكثير من كبار الناس يدخلون آتين من الشارع وتسلل الطفل ثم فتح الباب بغته ودخل الغرفة.

هو! كيف بدأوا ينتهرونه ويلوحون أيديهم في وجهة. وخفت إليه سيدة وضعت قرشا في يده وهذه تفتح له الباب المؤدي إلى الشارع. لشدما اعتراه الخوف! ولم يستطع أن يطبق على القرش أصابعه المجمدة فتدحرج على السلم، وانبعث له رنين قوي. وأسرع الطفل يركض دون أن يعرف إلى أين يتجه. أنه ليحس برغبة شديدة في البكاء، وكلنه يشعر بالخوف أيضا. وها هو يركض من جديد وهو ينفخ في يديه. وشعر أنه وحيد وخائف، وتملكه الغم والأسى.ووقف فجأة! يا إلهي ما هذا أيضاً؟ جمع من الناس يقفون وارء احدى الواجهات. وتطلع فرأى ثلاث دميات. انها ليست بكبيرة جدا، ولكنها ترتدي ثيابا حمراء وخضراء ويخيل لمن ينظر إليها أنها حية، حية تماما. وهذا عجوز جالس يلعب على قيثارة. قيثارة كبيرة. وعجوزان آخران يلعبان على قيثارتين صغيرتين ويهزان رأسيهما على وقع النغم. انهما

يتطلعان إلى بعضهما، وتتحرك شفتاهما ويتكلمان أجل! يخيل لمن ينظر إليها انهما يتكلمان.. ولكن الواجهة تحول دون سماعهما.

وظن الصغير لأول وهلة انها كائنات حية. ولكنه أدرك انها دمي فانفجر ضاحكاً. أنه لم ير مثلها من قبل. ورغم شعوره بالرغبة. في البكاء فقد أذهله التطلع إلى الدمى. لله ما أعجبها!

وأحس بمن يمسك به من الوراء. طفل خبيث كان يقف إلى جانبه، كال له فجأة ضربه على رأسه، ورمي قبعته ومد أمامه قدمه ودفعه فوقع على الأرض. وسمع من حوله صراخاً وأحس بالخوف فراح يركض مسرعا. واجتاز، دون أن يدري، ساحة دار كبيرة ودخل باب اسطبل وربض وراء كومة من الحطب: "هنا على الأقل لن يستطيع اكتشافي أحد، الظلمة مطبقة.

وجلس القرفصاء وتكوم على نفسه ولم يستطيع أن يأخذ نفساً إلى هذا الحد كان خائفا.

وشعر بارتياح فجأة. وكفت آلام يديه وقدميه وأحس بحرارة كأنه مدفأة. وخيل إليه لحظة أنه يسمع صوت أمه تغني له أغنية صغيرة وهي جانبة عليه.

– ماما أني نائم، لشد ما يحلو المنام هنا يا ماما.

وتمم فوقه بغته صوت حنون: "تعالى يا صغيري الحبيب وانظر إلى شجرتي" وقال لنفسه: "أنه صوت أمي". ولكن لا.. لم تكن أمه. ترى من ناداه إذن هكذا. أنه لم ير أحدا. مع ذلك فإن شخصاُ حنا عليه في

الظلام وضمه إلى صدره. ومد، هو، إليه ذراعيه. وغمر الكون فجأة ضياء عظيم! يا إلهي! أي ضياء!.

ورأى شضجرة. أوه! انها شجرة العبد البهية. ولكنها ليس من الصنوبر. أنه لم ير شجرة مثلها من قبل. ترى. أين هو الآن؟ كل شيء يتألق ويزهو وفي كل مكان حوله دمى صغار. ولكن لا ليست بمدى. أنها طفلات وأطفال صغار يلعبون جميعا. يرقصون (الدبكة) ويطيرون. ثم يعانقونه ويمسكون بيده. ويطير إليهم. وهاك ما يرى يرى أمه تنظر إليه بفرح وتبتسم.

ماما، ماما. آه! ما أحلى الحياة هنا يا ماما.

ويعانقه الصغار من جديد. ويهفو أن يفضي اليهم بحديث الدميات التي رآها في الواجهة.

وسألهم ملاظفا: "من انتم أيها الصغار، ومن تكن أيتها الصغيرات اللطيفات؟" قالوا له :"هذه شجرة العيد يقيمها السيد المسيح ليلة الميلاد للصغار الذين لم يكن لهم على الأرض شجرة عيد".

وهكذا عرف أن كل هؤلاء الأطفال كانوا مثله. منهم من مات من البرد في سلال تركت على سلالم القصور في بطر سبورج. وبعضهم قضى بين أيدي المرضعات. ومنهم من فارق الحياة على اثداء أمهاتهم وقد نضب حليبها يوم مجاعة مدينة سامراء، وقد اجتمعوا هنا الآن كالملائكة في ضيافة السيد المسيح، وهو بينهم، يرفع يده ليباركهم ويبارك أمهاتهم.

والأمهات هنا أيضا، يقفن في زاوية ويذرفن الدموع. وتتعرف كل منهن إلى طفلها الذي يطير للقائها. والأطفال يعانقون أمهاتهم ويمسحون دموعهن ويرجونهن أن يكففن عن البكاء طالما هم سعداء.

وفي الصباح، وجد البوابون، هناك .. جسم طفل صغير دخل بهو الدار مسرعا وتجلد وراء كومة من الحطب. كما وجدوا أمه أيضا وكانت قد فارقت الحياة قبل طفلها بقليل.

والتقى الإثنان في ملكوت الإله الرحيم.